الدَّوْرالايـــرَانِي فِيْ العَصْرِالأمَـوِي

د. عبد الحميد الرفاعي

ايـــــران :

استعمل المسلمون ـ قديما وحديثا ـ ثلاثة اسماء للدلالة على مسمى واحـد وهى : ايـران وفارس وخراسان ، وان كانـت « ايران » أقلها استعمالا عنـد مؤرخيهم ، الا أنها أقـدم هـذه الاسماء ظهورا ، وأكثرها شمولا ، وهى ـ عـلاوة على ذلـك ـ الاسم الذى ارتضاه الايرانيون حديثا .

وهذه التسمية القديمة ايران ، أو ايرانشهر ، كانت تطلق ـ كما ذكر ياقوت ـ عـلى المنطقة التى تشمل العراق وفـارس والجبال وخراسان ، ولكننا قبل أن نشرع فى الحديث عنها يجب أن نعتبر العراق منطقة بذاتها ، لاختلافها عـن سائر المناطـق المذكورة جغرافيا ، وبشريا ، وسياسيا ، وزاد هـذا الاختلاف بمرور العهود الاسلامية .

وكانت ايران منذ القدم موطن العناصر الآرية التى تضـم البارثيين ، والبكتريين والميديين ، وقد اندمجت هذه العناصر

فى عنصر واحد ، وتكلمت بلغة واحدة ، هى اللغة الفارسية التى كانت لغة اقليم « بارسا » الواقع شمال شرقى الخليج العربى

وايران القديمة أوسع من ايران الحالية ، فقد كانت تشمل أيضا جزءا كبيرا من أفغانستان وبلاد التركمان الروسية ، ويرى بعض المؤرخين أن اقليم ما وراء النهر جزء من ايران ، ويرجع ذلك ان أن منطقة ما وراء نهر جيحون كانت ملتقى الحضارتين الايرانية والطورانية ، والتقى فيها العنصران الفارسى والتركى الا أننا نميل الى اعتبارها جزءا من تركستان لانفصالها عن خراسان بنهر جيحون ، وغلبة العنصر التركى عليها وبخاصة بعد سقوط الدولة السامانية على أيدى القراخانيين سنة 389 هـ ، ويعضد هذا الرأى قول ياقوت : « فأما ما وراء النهر فهى بلاد الهياطلة ، ولاية برأسها » .

وقلب ايران هضبة يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف قدم وتحيط بها من جميع جهاتها ـ عدا جهتها الشرقية ـ حوائط جبلية معقدة ، أما من ناحية الشرق فانها تتداخل مع هضبة أخرى هى هضبة أفغانستان . والمناطق السهلية فيها ضيقة جدا فى الساحل الجنوبى ، وأخصب المناطق تقع فى السهول الشمالية على سواحل بحر قزوين حيث تتوفر الامطار .

وتعد خراسان أكبر الاقاليم الايرانية ، وهى كلمة فارسية معناها : الشمس المشرقة ، والى الجنوب الشرقى يوجد اقليم « سجستان » وتسمى أيضا « نيمروز » ومعناها « نصف يوم » لانه قيل انها تساوى نصف ما تطلع عليه الشمس ، لخيرها وثرائها وفى الجنوب على الشاطىء الشمالى للخليج العربى يوجد اقليم فارس ، والى الشرق منه يوجد اقليما كرمان ومكران . وفى الشمال على سواحل بحر قزوين توجد بلاد الديلم التى تشمل

جرجان وطبرستان والديلمان والخزر وقومس . وآخر الاقاليم الايرانية هو « خوزستان » الذى يقع بين فارس والبصرة على الطرف الشمالى الشرقى للخليج الفارسى .

وايران أمة عظيمة ذات تاريخ عريق وحضارة تليدة . وبخاصة فى عهد الاسرة الساسانية التى حكمتها منذ سنة 369 م . واعتبرها الفرس رمز مجدهم ووحدتهم ، وقد أحيا ملوكها الديانة الزرادشتية وعبادة النار . وزعموا لانفسهم حقا الهيا مقدسا فى حكم شعبهم واتخذوا لقب شاهنشاه ومعناه ملك الملوك وكانت الطبقية فيها سائدة . اذ يمثل الشعب الطبقة الدنيا ، ويحكمه طبقة الملاك (الدهاقين) والقادة العسكريين (المرازبة) ورجال الدين (الموابذة) . وقد أشرقت شمس الاسلام على المناطق الايرانية فى عهد الفتوحات الاسلامية الاولى فى عصر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، واستمرت مقاومتهم العنيدة الى أن قتل ملكهم « يزدجرد » فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه.

القبائل العربية فى ايران :

ارتبطت ايران بمصرى العراق « الكوفة » و « البصرة » منذ الفتح الاسلامى ، وكانت الاحداث فى هذين المصرين تنعكس انعكاسا مباشرا على الاقاليم الايرانية . كما كانت الاحداث الايرانية تحدث صدى كبيرا فيهما . ولم تكن الهجرات العربية التى أعقبت الفتح الاسلامى تتم من جزيرة العرب الى ايران مباشرة ، بل كانت تتخذ من هذين المصرين محطة وسطى ، وجسرا تعبر عليه الى ايران ، ولذا كانت أوضاع هذه القبائل انعكاسا لما كانت عليه أحوالها فى الكوفة والبصرة ، وحملت معها ما كان بينها من منافسات وصراعات . وكانت قبائل العرب الجنوبيين تغلب على الكوفة . وسميت أرباع الكوفة لانها تضم أربعة قبائل

يمنية هي : الازد ومذحج وهمدان وكندة ، أما البصرة فغلبت عليها قبائل العرب الشمالية ، وسميت أرباع البصرة وهي : بكر وعبد القيس وتميم وأهل العالية (ويقصد بهم أهل المدينة وبخاصة قيس) ثم لحقت بالبصرة في وقت متأخر نسبيا جماعات من الازد .

وتشكل في البصرة كتلتان متصارعتان الاولى تضم قبائل مضر وتميم ، وكانت هي الاقوى والاكثر عددا ، والثانية تضم الازد وربيعة (ومنها بكر) واستمر هذا التكتل عندما هاجرت هذه القبائل الى ايران .

وأقبلت هذه القبائل على الهجرة الى المناطق الايرانية لتشارك في الفتوحات الاسلامية في مناطق الثغور . وتنال مزيدا من الامتيازات ، ويصبح من حقها الاستيطان في المناطق الجديدة ، كما أنها رأت في مناطق الاطراف ما يسمح لها بحرية أكثر لانها لم تتعود الخضوع لسلطة مركزية ، وكانت الادارة الاموية تشجع هذا الاتجاه لتمتص الطاقة القتالية لهذه القبائل فيما هو أجدى من الصراع بينها ، والتمرد على سلطانها ، وكان الحجاج الوالي على المشرق يقول للعرب « انى لم أجد لكم دواء أدوى لدائكم من هذه المغازى والبعوث » .

وكانت الهجرات العربية تتم بأعداد كبيرة وتهدف الى التوطن والاستقرار ، اذ كان المقاتلون يصطحبون أسرهم ، وكان القادة يصطحبون قبائلهم معهم ، ومن أمثلة ذلك البعث الذى سيره زياد بن أبيه سنة احدى وخمسين من الهجرة الى خراسان بقيادة الربيع بن زياد الحارثي ، وكان يضم خمسين ألفا بعائلاتهم من أهل الكوفة والبصرة . وقد ذكرت المصادر احصائية لقوات القبائل الموجودة في خراسان سنة 96 هـ فكان مجموعها أربعة

وخمسين ألفا ، منها سبعة آلاف فقط من غير العرب . ولاشك أنه كانت هناك قوات أخرى تحارب فى الثغور ، وفى مناطق تمرد الخوارج . وفى سنة 112 هـ وجه الخليفة هشام بن عبد الملك عشرة آلاف من أهل البصرة ومثلهم من أهل الكوفة لتدعيم قوات قائده الجنيد فيما وراء النهر .

وغلبت كل قبيلة على منطقة من المناطق الايرانية ، ففى منطقة نيسابور وغربى ايران غلبت القيسية ، وفي شرقى ايران تداخلت مواطن بكر وتميم ، وكثر العداء بينهما ، وامتد الى اقليم سجستان .

وكانت تميم أكثر القبائل العربية عددا وقوة ، وبالتالى أكثرها تأثيرا فى الاحداث الايرانية ، وكان زعيمها فى الصدر الاول من العصر الاموى الاحنف بن قيس الذى يضرب به المثل فى الحلم ، وهو فاتح خراسان فى عهد عمر ، وكان مسموع الكلمة فى عهد معاوية ، وأحد مستشاريه فيما يتعلق بالولاية الايرانية (خراسان) ، وعنف الوالى زياد بن أبيه لاقصائه اياه وهدده بالعزل ، وقال معاوية لاخته عندما سألته عن الاحنف : « هذا الذى اذا غضب غضب لغضبته مائة ألف من بنى تميم لا يدرون فيم غضب » ، وكان بنو تميم فى عهده كتلة واحدة متماسكة ، وكان ينصحهم بقوله « يا بنى تميم تحابوا وتباذلوا تعدل أموركم ، وابدءوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم » . واستقر من كان مع الاحنف فى كور بلخ ، واتخذ هو من مرو الروذ قاعدة له .

لكن ترابط بنى تميم ووحدتهم فى ايران لم يستمر بنفس القدر ، وظهر التنافس بيد جماعتين منهم هما « مقاعس » و « الابناء » وتعصب كل منهما لبعض القادة ولذا لم يتمكن

بنو تميم من تولى الزعامة السياسية فى ايران ، وظلوا دائما يحتلون المركز الثانى بعد القيسية . وكان منهم نواب الموالى وأصحاب الشرطة .

وكان القيسية أصحاب الامرة ومنهم الولاة وكبار العمال . لانهم ينحدرون من نفس الارومة التى ينتمى اليها خلفاء بنى أمية ، ولم ينافسهم فى مكانتهم سوى اليمنية ، كالازد فى عهد المهلب وأبنائه وخالد بن عبد الله القسرى وأخيه أسد .

وبلغ الازد فى ايران أوج عزهم فى عهد زعيمهم المهلب ابن أبى صفره ، الذى أبلى أعظم البلاء فى حرب الخوارج وبخاصة فى اقليم فارس ، وبلغ من قوة زعيمهم هذا أنه تحدى قائده الحجاج عندما اتهمه بالتقاعس فى حرب الخوارج وهدده ، فقال له المهلب : « ان شرا من الازد لقبيلة تتنازعها ثلاث قبائل لم تستقر فى واحدة منهن » ، وتولى المهلب خراسان سنة 78 هـ ، ولكن الحجاج أوغر صدر الخليفة عبد الملك على المهالبة واتهمهم بأنهم زبيرية ، وقد أدى اقصاؤهم الى ثورتهم القوية بقيادة يزيد بن المهلب ، مما دفع الدولة الاموية الى التنكيل بهم فتضاءل معهم شأن الازد ، ودفعهم هذا الى ثورة أخرى فى أواخر العهد الاموى سنة 120 هـ بقيادة زعيمهم الكرمانى .

وقد أدت الصراعات بين العناصر العربية فى ايران قيسية ويمنية الى ضعف القوة العربية ، وضياع ثمرة جهودهم فيما وراء النهر حيث غلبهم الترك على هذا الاقليم ، كما أفاد العباسيون من هذه الصراعات ونجح قائدهم فى خراسان أبو مسلم فى استثمارها لصالحه .

ونظرا لغلبة الطابع الحربى على الهجرات العربية الى ايران فقد اتخذ معظمهم معسكرات خاصة بهم ، ورابطوا فى القلاع

والحصون ، ولكن هذا لا يعنى أنهم كانوا بمعزل عن السكان الاصليين ، ولم تكن حياتهم العسكرية تحول دون الاختلاط بالسكان الاصليين . فتزوج الكثير منهم من نساء فارسيات ، وظهرت أجيال جديدة مولدة امتزج فيها الدم العربى بالدم الفارسى ، وكانت للمقاتلين العرب فى القرى الفارسية أملاك وضياع ، كما كان لهم موال وأتباع من الفرس .

وبمرور الوقت ارتبط العرب بوطنهم الجديد ، وبدأوا يشعرون أنهم خراسانيون وكان يطلق عليهم « أهل خراسان » ، وتشبهوا الى حد كبير فى زيهم وحياتهم بالفرس ، فارتدوا السراويل الطويلة ، وشاركوا فى الاحتفال بعيدى النيروز والمهرجان ، كما أن الحياة العملية بما فيها من بيع وشراء وتعامل أدت الى معرفة الكثيرين منهم باللغة الفارسية ، وكانت هذه اللغة لغة تعامل حتى فى مناطق التجمع العربى كالكوفة والبصرة وظهر فى جيش أبى مسلم كثير من العرب يتكلمون الفارسية .

ولم يكن موقف الفرس معاديا لهذا الوجود العربى ، ولم يحدث أن تكتلوا ضد العرب ، أو وقفوا منهم موقف العداوة والنفور ، وبخاصة أن العرب أشركوهم معهم فى كثير من الامور كما سيرد فى حينه .

وكانت الخلافة الاموية وادارتها فى ايران تعملان على ايجاد التوازن بين هذه العصبيات العربية ، وليس صحيحا أن الخلافة انحازت الى القيسية ضد اليمنية ، وتعصبت لها ، لان هذه الخلافة نفسها لم تجد غضاغه فى الاعتماد بصورة كبيرة على اليمنية فى الشام ، وبخاصة قبيلة كلب اليمنية التى تزوج منها معاوية ابن أبى سفيان ، وأبلت مع مروان بن الحكم فى مرج راهط أعظم البلاء ، ولكن الوضع فى ايران كان يفرض نفسه ، لان

المضرية كانوا غالبية كبيرة وبخاصة تميم . فكانت هذه الاغلبية عنصرا مؤثرا فى تقدم المضرية على منافسيهم ، ولكن الخلافة لم تصرف نظرها عن اليمنيين . وولت منهم المهالبة ، وخالدا القسرى وأخاه أسدا ، ولكن المضرية كانوا كثيرى الشغب على هؤلاء الولاة ورفضوا الخضوع لهم .

وترجع كثرة الاضطرابات العصبية فى ايران الى أن القبائل التى استقرت بها كانت من قبائل البدو الذين لم يعرفوا الاستقرار أو الخضوع لحكومة مركزية ، وهى القبائل التى تفشت فيها الردة بصورة واضحة ، أما قبائل الشام من كلب وقضاعه فقد بدأ استقرارها هناك قبل الاسلام ، وعرفت نوعا من النظم المتطورة فى ظل الغساسنة والارتباط بالدولة البيزنطية . فكانت أكثر استعدادا للالتزام بالطاعة .

وكانت الادارة الاموية تستعين بجندها الشامى عند الحاجة لقمع الثورات ، أو تعزيز قواتها فى الثغور ، ولكنها تسحب هذا الجند ، ولا تسمح له بالبقاء فى ايران حتى لا يتأثر بما فيها من اضطرابات ، وبنى الحجاج مدينة واسط لتكون معسكرا لهذا الجند الشامى حتى لا يختلط بالجند العربى فى الكوفة أو خراسان وكان الحجاج يقول لهم : « يا أهل الشام انما انا لكم كالظليم الذاب عن فراخه ينفى عنها المدر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر . ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذئاب ، يا أهل الشام أنتم الجنة والرداء » ، وكان يسميهم «أهل السمع والطاعة» وفى سنة 116 هـ وجد الوالى عاصم بن عبد الله الخراسانيين ينضمون الى ثورة الحارث بن سريج التى سنشير اليها ، فقال : « انى لاحق بأرض قومى أبر شهر ، وكاتب منها الى أمير المؤمنين حتى يمدنى بعشرة آلاف من أهل الشام » .

وكان تقديم الشاميين يثير غيرهم من العرب فى خراسان . حتى قال قتيبة بن مسلم لجنده ، عندما أعلن ثورته على الامويين « حتى متى يتبطح أهل الشام بأفنيتكم » . وكانت أحد أسباب ثورة ابن اشعث ، فحاول الخليفة ترضية الجند المتمرد بأن عرض عليهم « أن يجرى عليهم أعطياتهم كما يجرى على أهل الشام » .

أحوال الايرانيين الاجتماعية والاقتصادية :

اعتبر العرب أهل البلاد المفتوحة الذين اعتنقوا الاسلام موالى لهم ، وهذه التسمية لا تدل أبدا على تحقيرهم ، او انهم مواطنون من الدرجة الثانية ، ولكنها تدل على الولاء والارتباط من الناحية اللغوية ، ومن ناحية الاستعمال ، فهى تفيد أن هؤلاء المسلمين الجدد التحقوا بالقبائل العربية ، وشاركوا العرب فى أنسابهم ، وهى من أسمى ما يعتز به العربى ، وأن العرب لم يقبلوا أن يسترقوهم أو يستعبدوهم برغم أن بلادهم فتحت عنوة ، وقد أكسبهم الالتحاق بالقبائل العربية ميزات كثيرة فى مجتمع يعلو فيه شأن الافراد بالانتساب الى القبائل ذات العدد والبأس ، وقد ذكر ابن عبد ربه فضل العرب على الموالى فقال انه العتاقة ، والاحسان اليهم واستنقاذهم من الكفر ، واخراجهم من دار الشرك الى دار الايمان والتعرض للقتل فيهم ، أى مسئولية العرب عن حمايتهم والدفاع عنهم وقبول الموت من أجلهم .

واذا كان هناك فريق من العرب تعصبوا ضد الموالى ، فان فريقا من الموالى أيضا تعصبوا ضد العرب وهم الذين اطلق عليهم اسم « الشعوبيين » ولكن هذا لا يعنى أنه كان الوضع العام أو السائد ، ولكنه اتجاه أقلية من المسلمين ، وليس أدل على ذلك من أن ابن عبد ربه أفرد لهم بابا تحت عنوان « باب المتعصبين من العرب » .

المضرية كانوا غالبية كبيرة وبخاصة تميم . فكانت هذه الاغلبية عنصرا مؤثرا فى تقدم المضرية على منافسيهم ، ولكن الخلافة لم تصرف نظرها عن اليمنيين ، وولت منهم المهالبة ، وخالدا القسرى وأخاه أسدا ، ولكن المضرية كانوا كثيرى الشغب على هؤلاء الولاة ورفضوا الخضوع لهم .

وترجع كثرة الاضطرابات العصبية فى ايران الى أن القبائل التى استقرت بها كانت من قبائل البدو الذين لم يعرفوا الاستقرار أو الخضوع لحكومة مركزية ، وهى القبائل التى تفشت فيها الردة بصورة واضحة ، أما قبائل الشام من كلب وقضاعه فقد بدأ استقرارها هناك قبل الاسلام ، وعرفت نوعا من النظم المتطورة فى ظل الغساسنة والارتباط بالدولة البيزنطية . فكانت أكثر استعدادا للالتزام بالطاعة .

وكانت الادارة الاموية تستعين بجندها الشامى عند الحاجة لقمع الثورات ، أو تعزيز قواتها فى الثغور ، ولكنها تسحب هذا الجند ، ولا تسمح له بالبقاء فى ايران حتى لا يتأثر بما فيها من اضطرابات ، وبنى الحجاج مدينة واسط لتكون معسكرا لهذا الجند الشامى حتى لا يختلط بالجند العربى فى الكوفة أو خراسان وكان الحجاج يقول لهم : « يا أهل الشام انما انا لكم كالظليم الذاب عن فراخه ينفى عنها المدر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر . ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذئاب ، يا أهل الشام أنتم الجنة والرداء » ، وكان يسميهم «أهل السمع والطاعة» وفى سنة ١١٠ هـ وجد الوالى عاصم بن عبد الله الخراسانيين ينضمون الى ثورة الحارث بن سريج التى سنشير اليها ، فقال : « انى لاحق بأرض قومى أبر شهر ، وكاتب منها الى أمير المؤمنين حتى يمدنى بعشرة آلاف من أهل الشام » .

وكان تقديم الشاميين يثير غيرهم من العرب فى خراسان ، حتى قال قتيبة بن مسلم لجنده ، عندما أعلن ثورته على الامويين « حتى متى يتبطح أهل الشام بأفنيتكم » . وكانت أحد أسباب ثورة ابن اشعث ، فحاول الخليفة ترضية الجند المتمرد بأن عرض عليهم « أن يجرى عليهم أعطياتهم كما يجرى على أهل الشام » .

أحوال الايرانيين الاجتماعية والاقتصادية :

اعتبر العرب أهل البلاد المفتوحة الذين اعتنقوا الاسلام موالى لهم ، وهذه التسمية لا تدل أبدا على تحقيرهم ، او انهم مواطنون من الدرجة الثانية ، ولكنها تدل على الولاء والارتباط من الناحية اللغوية ، ومن ناحية الاستعمال ، فهى تفيد أن هؤلاء المسلمين الجدد التحقوا بالقبائل العربية ، وشاركوا العرب فى أنسابهم ، وهى من أسمى ما يعتز به العربى ، وأن العرب لم يقبلوا أن يسترقوهم أو يستعبدوهم برغم أن بلادهم فتحت عنوة ، وقد أكسبهم الالتحاق بالقبائل العربية ميزات كثيرة فى مجتمع يعلو فيه شأن الافراد بالانتساب الى القبائل ذات العدد والبأس ، وقد ذكر ابن عبد ربه فضل العرب على الموالى فقال انه العتاقة ، والاحسان اليهم واستنقاذهم من الكفر ، واخراجهم من دار الشرك الى دار الايمان والتعرض للقتل فيهم ، أى مسئولية العرب عن حمايتهم والدفاع عنهم وقبول الموت من أجلهم .

واذا كان هناك فريق من العرب تعصبوا ضد الموالى ، فان فريقا من الموالى أيضا تعصبوا ضد العرب وهم الذين اطلق عليهم اسم « الشعوبيين » ولكن هذا لا يعنى أنه كان الوضع العام أو السائد ، ولكنه اتجاه أقلية من المسلمين ، وليس أدل على ذلك من أن ابن عبد ربه أفرد لهم بابا تحت عنوان « باب المتعصبين من العرب » .

رجل مسلم له مالى ، وعليه ما على ، ورجل له ذمة الله ورسوله ، فوالله ما دريت أين أضع يدى » .

وكانت شكوى الموالى تنصب على المعاملة المالية ، ومطالبتهم أن يتساووا بالعرب فى الاعباء الضريبية من خراج وجزية ، بعد أن ساوى الاسلام بينهم ، وكان الاقبال على الاسلام عظيما ، وترك كثير من الموالى أرضهم الزراعية وفضلوا الحياة فى المدن الكبيرة كالكوفة والبصرة ، ورغبوا فى المشاركة مع العرب فى الجندية ، والحصول مثلهم على العطاء ، فأدى هذا الى تناقص دخل الدولة ، وانكسر الخراج ، وأهملت الارض الزراعية ، وأصبحت الدولة مهددة بأزمة اقتصادية ، وبخاصة أن ايران تكلفها الكثير من الاعباء بما فيها من ثورات واضطرابات ، وما تدفعه من عطاء للجند .

وقد اختلفت أساليب الساسة الامويين فى معالجة هذه المشكلة، فنظر بعضهم الى مصلحة الدولة وحدها دون أدنى اعتبار لمطالب الموالى ، مثل الحجاج الذى أمر بعودة الموالى الى قراهم ، ويقال انه وسمهم على أيديهم حتى لا يستطيع أحد منهم مفارقة موطنه ، وأمر باسقاط أسمائهم من ديوان الجند ، ونظر بعضهم الى المبادىء والمثل الاسلامية خالصة مثل عمر بن عبد العزيز فقال : « لا خراج على من أسلم من أهل الارض » ، ولكنه وازن بين مصلحة الدولة ومصلحة الموالى ، فاعتبر سنة مائة سنه فاصلة وأسماها سنة المدة ، ومنع بيع الارض الزراعية الخراجية بعد هذه السنة ، ومن اشترى شيئا بعدها فان بيعه مردود ، لان هذه الارض اعتبرت بعد الفتح ملكا للدولة الاسلامية ، وقد نظرت الى مصلحة الزارعين فأبقتها فى أيديهم مقابل الخراج ، واذا بيعت للمسلمين تتحول الى أرض عشرية وتخسر الدولة خراجها. وعمل الخليفة الراشد على تقليل نفقات الدولة بايقاف الحروب

الكثيرة التى لم تحقق نتائجها المرجوة ، ورد القطائع والصوافى التى استولى عليها بعض أبناء البيت الحاكم .

ولم تستمر هذه السياسة الراشدة الى النهاية ، بل عاد الولاة الى الزام الموالى الذين دخلوا فى الاسلام حديثا وبخاصة فى منطقة ما وراء النهر ، بدفع الجزية والخراج ، فأدى ذلك الى الثورة والتذمر بين الموالى وأيدهم فريق كبير من العرب .

وبذلك نستطيع أن نقول ان تيار المساواة بين العرب والموالى كان يسير في طريقه الحتمى، وكان بعض الولاة والخلفاء يعترض هذا التيار ناظرا الى مصالح الدولة المالية ، ولكن هذا التيار كان يحظى بتأييد قوى من بعض الخلفاء كسليمان وعمر بن عبد العزيز ومن جماعة الفقهاء والقراء فى الامصار ، وبعض القادة العرب المعارضين للسياسة الاموية كابن الاشعث والمختار والحارث ابن سريج ، كما سنذكر ان شاء الله .

مشاركة الايرانيين فى الادارة المالية :

كان الايرانيون فى العصر الاموى حديثى عهد بالاسلام ، اذ لم يكتمل فتح بلادهم الا فى عهد الخليفة عثمان رضى الله عنه ، وانتقال الشعوب من حضارة الى أخرى ومن عقيدة الى أخرى لا يتم بين عشية وضحاها ، لذلك احتاج الامر الى فترة من الوقت حتى تمتزج هذه الشعوب بالحضارة الاسلامية وتعايش قادتها العرب الفاتحين ، وتتخذ دورا طليعيا تحت رايتها ، ولذا كانت السلطة السياسية فى أيدى العرب ، ولكنهم لم يغلقوا الابواب فى وجه العناصر الايرانية ، بل أردفوهم بهم ، وجعلوهم موالى لهم ، وأشركوهم فى بعض النواحى الادارية الهامة ، وبخاصة ما يتعلق بالكتابة والخراج وجمع الاموال ، وجعلوهم مستشارين يسترشدون برأيهم ، ويقومون بالسفارة بينهم وبين أقوامهم .

وقد تصدر الايرانيون هذه المكانة فى مجالى الجباية والسفارة لخبرتهم ودرايتهم بأحوال بلادهم ، وطبيعة أرضها وسكانها ، وكانت آراؤهم وأعمالهم تدل على فهم واسع ووعى كبير .

وما يقال عن تعصب الدولة الاموية ضد الموالى بصفة عامة والفرس منهم بصفة خاصة ليس صحيحا على اطلاقه ، لان معاوية اصطنع الموالى والنصارى وولاهم مناصب ادارية هامة ، وكان كاتبه وصاحب أمره سرجون الرومى ، وكان طبيبه ابن اثال نصرانيا ، وقد اتبعه فى هذه السياسة كثير من خلفائه وعماله ، وفى الامثلة العديدة التى ذكرها الجهشيارى ما يغنى فى هذا المجال .

وفى المناطق الايرانية رأت الادارة الاموية أن الاعتماد على الدهاقين فى أمور الخراج والجباية أجدى لها ، لانهم أكثر علما بها ، كما أنهم أيسر فى محاسبتهم ، أما العربى فانه يمتنع بقبيلته وعصبيته ، ولا يستطيع الولاة محاسبتهم . وهذا يتضح من قول عبيد الله بن زياد : « كنت اذا استعملت الرجل من العرب فكسر الخراج ، فأقدمت عليه ، أوغرت صدر عشيرته ، أو أغرمته فحملت على عطاء قومه أضررت بهم ، وان تركته تركت مال الله وأنا أعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية وأوفى بالامانة ، وأهون على مطالبة » .

وكان زياد بن أبيه يستخدم على الخراج زازان فروخ ، وكان يكتب له مرداس مولاه ، وعندما وجه عمر بن هبيرة عامله مسلم ابن سعيد الى خراسان سنة 104 هـ أوصاه قائلا : « تختار من كل كورة لعملك ، فان أصابوا فالذى أردت ، وان أخطأوا فهم المخطئون ، وأنت المصيب » .

وكان عمال بنى أمية يسعون الى مشورة الدهاقين فى مجال الخراج ، ويحرصون عليها . فعندما تولى عبيد الله بن المحارب الفلوجتين (وهما قريتان كبيرتان قرب عين التمر) من قبل الحجاج بن يوسف ، قال عند ما وصل ولايته ، « أههنا دهقان يعاش برأيه ؟ فقيل له : جميل بن يصهرى ، فاستدعاه وطلب مشورته،فقال له : أقدمت لرضىربك أم لرضىمن قلدك ؟ قال : ما استشرتك الا لرضى الجميع ، فقال : احفظ عنى خلالا : لا يختلف حلمك على رعيتك ، وليكن حلمك على الشريف والوضيع سواء ، ولا تتخذن حاجبا ليرد عليك الوارد من أهل عملك على ثقة من الوصول اليك . وأطل الجلوس الى أهل عملك يتهيبك عمالك ، ولا تقبل الهدية فان صاحبها لا يرضى الا بثلاثين ضعفا ، فاذا فعلت ذلك فاسلخ جلودهم من قرونهم الى أقدامهم » ، ومعنى قول الدهقان أن عمال السوء يحتجزون نصيبا كبيرا من أموال الجباية لانفسهم ويخدعون الوالى بتقديم بعض الهدايا له ، قال ابن المحارب : « فعملت بنصيحته فجبيتها ثمانية عشر ألف ألف درهم » .

وكان الايرانيون من جانبهم يحرصون على احتكار مناصب الخراج والاشراف المالى ، ويتضافرون من أجل ذلك فى تكتل واضح ، فعندما قدم الحجاج الى العراق تخوف الدهاقين أن يستغنى عنهم ويذهب نفوذهم ، فاجتمعوا الى كبيرهم ابن يصهرى فدعاهم الى التآزر ، وألا يتعاون بعضهم مع الوالى على حساب اخوانه ، وقال لهم : « ما أحسن حالكم اذا لم تبتلوا معه بكاتب منكم » ، وضرب لهم مثلا مشهورا عندهم ، وهو « أن فأسا ألقيت بين شجر ، فقال بعض الشجر لبعض : « ما ألقى هذا ههنا لخير ، فقالت لهم شجرة : ان لم يدخل هذا شىء منكن فلا تخفنه » !

وكان والى خراسان أسد بن عبد الله (تولى سنة 106 هـ) يقرب اليه الدهاقين ويصطفى منهم بطانة ، « وكان والى هراة خصيصا به » وكان يمازحه ، ويمتدحه ، ويناصحه ، وكان أسد يقول له : « انك خير دهاقينا » . وقال عامل الخراج فى الرى ، وقد ولاه خالد بن عبد الله أمير العراق : « ان الامير لم يول الخراج عربيا قط » .

واستمرت سيطرة الفرس على أعمال الخراج طوال العصر الاموى ، برغم اتجاه الدولة الى سياسة التعريب منذ عهد عبد الملك بن مروان ، فتم تعريب ديوان العراق سنة 78 هـ ، والذى قام بتعريبه واحد من الموالى هو صالح بن عبد الرحمن مولى لبنى تميم ، وهو فى الاصل من سبى سجستان ، وكان لصالح هذا مدرسة خرجت عديدا من الاداريين وأصحاب الخبرة فى الامور المالية ، اذ يقول الجهشيارى : « وكان عامة كتاب العراق تلامذة صالح » .

وكان التعريب فى العراق أسبق منه فى خراسان ، وظل أكثر كتاب الخراج فى خراسان مجوسا ، والحسابات بالفارسية حتى كتب يوسف بن عمر والى العراق الى عامله على خراسان نصر ابن سيار سنة 124 هـ يأمره ألا يستعين بأحد من أهل الشرك فى أعماله وكتابه ، وكان هذا امتدادا لسياسة عمر بن عبد العزيز الذى أمر ألا يتولى أمور المسلمين أحد من أهل الشرك لقوله تعالى « **لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا** » ، ونشط نصر ابن سيار فى تطبيق سياسة التعريب فى خراسان ، وكلف بذلك رجلا من بنى نهشل يسمى « طليق » الكاتب ، وكان ذلك فى أواخر العهد الاموى ، ولاشك أنه يحتاج الى وقت ليس بالقصير حتى يؤتى ثماره .

الاعتماد على الايرانيين فى المشورة والسفارة :

كان الموالى الايرانيون على علم بطبيعة بلادهم وطبائع أهلهم ، ولغاتهم ، ولذلك اعتمد عليهم الـــولاة والقـــادة العسكريون ، فاستناروا بمشورتهم فى أمـــور الحرب واستخدموهم سفـــراء ومبعوثين للتفاهم والتفاوض مـــع حكام الثغور وأمراء المناطق المجاورة ، وكان هؤلاء الموالى يؤثرون رابطة الاسلام على آصرة الدم ، فيخلصون النصح لاخوانهم فى الدين عـــلى بنى جلدتهم ، وكان بين يزيد بن المهلب والى خراسان ، وحيـــان النبطى (وهو مـــن الديلم) خلاف ومنافرة ، لكنه استجاب لقوله : « لا يمنعك ما كان منى اليك عن نصيحة المسلمين » ، فقال « نعم » وتعاون معـــه فى فتوحات جرجان وطبرستان سنة 97 هـ ، وكان يحارب أهلها من الجيل والديلم الذين ينتسب اليهم .

واستطاع حيان أن يمهد السبيل لدخول المسلمين طبرستان صلحا بعد أن فشلوا فى دخولها حربا وتكبدوا خسائر كبـــيرة ، وأبدى براعة وحنكة « ديبلوماسية » اذ استطاع أن يكسب ثقـــة الاصبهبذ حاكم طبرستان فقال له : « أنا رجل منكم ، وان كان الدين قد فرق بينى وبينكم فأنا لكم ناصح ، فأنت أحب الى من يزيد » ، ثـــم هون من شـــأن الانتصارات المبدئية التى أحرزها الديلم عـــلى المسلمين ، وحذره مـــن سوء العاقبة عندما تصـــل الامدادات من الخليفة فقال : « وقد بعث يزيد يستمد ، وأمداده قريبة منه ، وانما أصابوا منه طرفا ، ولست آمن أن يأتيك من لا تقوم له ، فأرح نفسك وصالحه » . وقـــد أثمرت هذه السفارة ودخل الاصبهبذ فى طاعة المسلمين .

وفى فتوحات مـــا وراء النهـــر أرســـل والى خراسان أشرس ابن عبد اللـــه (تولى سنة 109 هـ) وفـــدا لدعوة أهل سمرقند ،

وأسند رئاسته الى رجل من الموالى كان من أهل الفقه والعلم يدعى أبا الصيداء صالح بن طريف مولى بنى ضبة ، فاشترط قبل ذهابه مع الوفد اسقاط الجزية عمن يسلم ونجح أبو الصيداء فى مهمته وأقبل الترك على الاسلام ، ولكن الوالى لم يف بما وعد فأدى ذلك الى ثورة عارمة سيرد ذكرها .

وفى سنة 112 هـ واجه المسلمون صعوبات عديدة ، وحوصرت قواتهم الموجودة فى بخارى ، وكان الجنيد قائد المسلمين ومعه القوات الرئيسية فى سمرقند لا يدرى ما يفعل هل يبقى حتى يأتيه المدد أم يتقدم لانقاذ المسلمين ، وتعددت الآراء والاقوال ، فطلب من أحد الموالى وهو عبد الله بن أبى عبيد الله أن يسعفه بالرأى السديد ، فاشترط عليه قبل النصح ألا يخالفه الرأى فى ارتحال أو نزول أو قتال ، فقال : نعم ، فقال المولى : « تخندق حيثما نزلت ، ولا يفوتك حمل الماء ولو كنت على شاطىء نهر » ، ثم بين له وجه الخطأ فى المشورات السابقة التى أشار بها بعض القادة : « أما ما أشاروا عليك فى مقامك بسمرقند حتى يأتيك الغياث ، فالغياث يبطىء عنك ، وأما ما أشاروا عليك من طريق كش ونسف (وهو الطريق غير المعتاد) فانك ان سرت بالناس فى غير الطريق فتت فى أعضادهم ، وانكسروا من عدوهم ، واجترأ عليك خاقان ، وهو اليوم قد استفتح بخارى فلم يفتحوا له ، فان أخذت غير الطريق بلغ أهل بخارى ما فعلت فيسلموا لعدوهم ، وان أخذت الطريق الاعظم هابك العدو » .

وقد آتت هذه النصائح أكلها ، فكانت نصرا مؤزرا فى يوم مشهود عرف « بيوم الشعب » ، حتى قيل ان عبد الله هذا جاء بعد وفاته ابنه فى المنام فقال له : « حدث الناس عن رأيى فى يوم الشعب » ، وكان الجنيد يمدح هذا الرجل ، اذ قال عن ابنه : «زبدة من الزبد ، صنبور بن صنبور» (والصنبور من لا أخ له).

وكان الموالى يستخدمون كأدلاء فى الطريق ، وكان عثمان ابن الشخير قائد المسلمين فيما وراء النهر يستخدم دليلا من منطقة الجوزجان ، فأرشده الى السبيل التى يهاجم منها ملك الترك ، وقال له : « انى لاعلم ببلادى وطرقها ، فهل تتبعنى لعلنا نهلك خاقان ، قال نعم ، فأخذا طريقا ، وسارا ومن معهما حتى أشرفوا على خاقان فأوقعوا به » .

مشاركة الايرانيين فى الجيوش الاموية :

اتخذ المسلمون من خراسان قاعدة تنطلق منها الجيوش الفاتحة فى المناطق الشمالية والشرقية ، فى ميدانى ما وراء النهر والسند ، وكان العنصر العربى صاحب النصيب الاوفى فى هذه الفتوحات امتدادا لرسالته التى اضطلع بها منذ عهدى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ولكن العرب لم يحرموا العناصر الاخرى التى أقبلت على الاسلام أن تشارك معهم فى هذا المضمار ، بل اتجهت السياسة الاموية فى مناطق الثغور الى امداد جيوشها بدماء جديدة ، كالبربر فى المغرب والفرس فى المشرق .

وتذكر الروايات التاريخية أن جيش قتيبة الذى عبر النهر سنة 80 هـ كان يضم ثلاثمائة وخمسين ألف درع ، ولما كانت الاحصاءات المذكورة تؤكد أن الجند العربى من خراسان لم يكن يتجاوز خمسين ألفا ، فلاشك أن معظم هذا الجيش كان من الموالى وكان أمراء الفرس وعظماؤهم ، فى المناطق القريبة من نهر جيحون يسارعون بالانضمام اليه بقواتهم ، ففى سنة 86 هـ تلقاه عند الطالقان دهاقين بلخ وعظماؤها فساروا معه ، كما ذكر الطبرى .

وأسند رئاسته الى رجل من الموالى كان من أهل الفقه والعلم يدعى أبا الصيداء صالح بن طريف مولى بنى ضبة ، فاشترط قبل ذهابه مع الوفد اسقاط الجزية عمن يسلم ونجح أبو الصيداء فى مهمته وأقبل الترك على الاسلام ، ولكن الوالى لم يف بما وعد فأدى ذلك الى ثورة عارمة سيرد ذكرها .

وفى سنة 112 هـ واجه المسلمون صعوبات عديدة ، وحوصرت قواتهم الموجودة فى بخارى ، وكان الجنيد قائد المسلمين ومعه القوات الرئيسية فى سمرقند لا يدرى ما يفعل هل يبقى حتى يأتيه المدد أم يتقدم لانقاذ المسلمين ، وتعددت الآراء والاقوال ، فطلب من أحد الموالى وهو عبد الله بن أبى عبيد الله أن يسعفه بالرأى السديد ، فاشترط عليه قبل النصح ألا يخالفه الرأى فى ارتحال أو نزول أو قتال ، فقال : نعم ، فقال المولى : « تخندق حيثما نزلت ، ولا يفوتك حمل الماء ولو كنت على شاطىء نهر » ، ثم بين له وجه الخطأ فى المشورات السابقة التى أشار بها بعض القادة : « أما ما أشاروا عليك فى مقامك بسمرقند حتى يأتيك الغياث ، فالغياث يبطىء عنك ، وأما ما أشاروا عليك من طريق كش ونسف (وهو الطريق غير المعتاد) فانك ان سرت بالناس فى غير الطريق فتت فى أعضادهم ، وانكسروا من عدوهم ، واجترأ عليك خاقان ، وهو اليوم قد استفتح بخارى فلم يفتحوا له ، فان أخذت غير الطريق بلغ أهل بخارى ما فعلت فيسلموا لعدوهم ، وان أخذت الطريق الاعظم هابك العدو » .

وقد آتت هذه النصائح أكلها ، فكانت نصرا مؤزرا فى يوم مشهود عرف « بيوم الشعب » ، حتى قيل ان عبد الله هذا جاء بعد وفاته ابنه فى المنام فقال له : « حدث الناس عن رأيى فى يوم الشعب » ، وكان الجنيد يمدح هذا الرجل ، اذ قال عن ابنه : «زبدة من الزبد ، صنبور بن صنبور» (والصنبور من لا أخ له).

وكان الموالى يستخدمون كأدلاء فى الطريق ، وكان عثمان ابن الشخير قائد المسلمين فيما وراء النهر يستخدم دليلا من منطقة الجوزجان ، فأرشده الى السبيل التى يهاجم منها ملك الترك ، وقال له : « انى لاعلم ببلادى وطرقها ، فهل تتبعنى لعلنا نهلك خاقان ، قال نعم ، فأخذا طريقا ، وسارا ومن معهما حتى أشرفوا على خاقان فأوقعوا به » .

مشاركة الايرانيين فى الجيوش الاموية :

اتخذ المسلمون من خراسان قاعدة تنطلق منها الجيوش الفاتحة فى المناطق الشمالية والشرقية ، فى ميدانى ما وراء النهر والسند ، وكان العنصر العربى صاحب النصيب الاوفى فى هذه الفتوحات امتدادا لرسالته التى اضطلع بها منذ عهدى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ولكن العرب لم يحرموا العناصر الاخرى التى أقبلت على الاسلام أن تشارك معهم فى هذا المضمار ، بل اتجهت السياسة الاموية فى مناطق الثغور الى امداد جيوشها بدماء جديدة ، كالبربر فى المغرب والفرس فى المشرق .

وتذكر الروايات التاريخية أن جيش قتيبة الذى عبر النهر سنة 80 هـ كان يضم ثلاثمائة وخمسين ألف درع ، ولما كانت الاحصاءات المذكورة تؤكد أن الجند العربى من خراسان لم يكن يتجاوز خمسين ألفا ، فلاشك أن معظم هذا الجيش كان من الموالى وكان أمراء الفرس وعظماؤهم ، فى المناطق القريبة من نهر جيحون يسارعون بالانضمام اليه بقواتهم ، ففى سنة 86 هـ تلقاه عند الطالقان دهاقين بلخ وعظماؤها فساروا معه ، كما ذكر الطبرى .

لاتباع الحارث بن سريج : « يا أهل خراسان انا كنا بمنزلة بيت واحد وثغر واحد ، ويدنا على عدونا واحدة ، وقد أنكرنا ما صنع صاحبكم ، ووجه اليه أميرنا بالفقهاء والقراء .. » . ولم يرض مقاتل عن موقف الكرماني زعيم اليمنية ، فى الفتنة التى وقعت بين اليمنية والمضرية ، فقال له : « أفى كتاب الله هدم الدور وانتهاب الاموال » ؟ وتعرض من أجل ذلك للسجن ، اذ حبسه الكرماني فى معسكره حينا ثم خلاه .

وكان الموالى الايرانيون يشكلون جانبا أساسيا فى « هيئة أركان الحرب » التى تخطط للقتال فى خراسان والتى أسماها المؤرخون « أصحاب رأى الحرب فى خراسان » والتى تضم من العرب المجشر بن مزاحم ، وعبد الرحمن بن صبح المرقى ، ويقول ابن الاثير : « كان رجال من الموالى مثل هؤلاء فى الرأى والمشورة والعلم بالحرب ، فمنهم الفضل بن بسام مولى بنى ليث ، وعبد الله بن أبى عبد الله مولى بنى سليم ، والبخترى بن مجاهد مولى بنى شيبان » .

دور الايرانيين فى حركات المعارضة :

كانت جميع الافكار الثورية والحركات المناهضة ذات التأثير والفعالية فى العصر الاموى تنبع من العرب أنفسهم ، كثورات الشيعة والخوارج ، وفرق المرجئة والمعتزلة والجهمية ، وحركات التمرد العسكرية ، وكان يتصدى لقيادتها بعض العناصر العربية باستثناء ثورة الخوارج الصفرية فى المغرب الاقصى ، وان كانت قد اعتمدت فى جانبها الفكرى على عناصر مشرقية .

وذلك أن قادة المعارضة من العرب وجدوا فى العناصر الجديدة التى دخلت فى الاسلام صفحة بيضاء من السهل أن يصبوا فيها أفكارهم ، ومادة طيعة يمكن تشكيلها وتوجيهها نحو أهدافهم ،

ولذلك فلا يمكننا أن ننساق وراء الرأى القائل بأن حركات الموالى كانت نقمة على السيادة العربية ، ورغبة فى استعادة أمجادهم القومية ، لانهم كانوا يتحركون بفكر عربى ، وتحت قيادة عربية فى أغلب الاحيان ، وبخاصة فى ايران .

وكانت أقوى اتجاهات المعارضة التى استجاب لها الايرانيون ثورات الشيعة ، ونعتقد أن النظرية الشائعة بين المؤرخين التى تفسر سبب ارتباط الايرانيين بالتشيع ، وهى الفكرة التى نادى بها بروان وجوبينيو لا تكفى وحدها لتفسير هذا الارتباط، وهى تستند الى عنصرين ، عنصر قديم رسخ فى معتقدات الفرس قبل الاسلام وهو اعتقاد الفرس بأن ملوكهم يملكون حقا الهيا مقدسا ، وهذا الاعتقاد جعلهم يميلون الى فكرة الوراثة وأحقية آل البيت ، والعنصر الثانى جديد يرى أن الدم الفارسى امتزج بالدم العربى فى آل البيت لان الحسين بن على تزوج من شهربانوه بنت كسرى يزدجرد .

ونحن نرى أن هذه النظرية لا تكفى وحدها ، لان فكرة الحق الالهى لم تكن مقصورة على ملوك الفرس وحدهم بل ادعاها قياصرة الروم وفراعنة مصر ، فلماذا تمسك بها الفرس دون غيرهم من العناصر التى دخلت فى الاسلام ، ولماذا قبلوا فكرة الوراثة وأحقية آل البيت ، ولم يقبلوا غيرها من الافكار التى تجعلهم على قدم المساواة مع العرب مثل أفكار الخوارج التى تنادى بأن الخلافة حق لجميع المسلمين دون التقيد بعنصر معين .

وفكرة التقاء الدم العربى بالدم الفارسى لا يمكن أن تفسر لنا سبب التفافهم حول المختار الذى كان يدعو لمحمد بن الحنفية أخى الحسين ، وهو لم يصهر اليهم ، ولا يمكن أن تفسر لنا سبب عزوفهم عن بنى أمية وقد كان يزيد بن الوليد من أم فارسية ، وكان يقول : « أنا ابن كسرى وأبى مروان » كما سبق أن ذكرنا.

ولـكن ارتباط الفرس بالتشيع يرجـع الى التجاور المكانى والتلاحم التاريخى ، فقد كانت الكوفة مركز التشيع منذ عهد عـلى بن أبى طالب ، وتعج بالحركات الثورية مثل ثورة الحسين ابن عـلى وحركة التوابين ، والكوفة تطل عـلى بلادهم وتغذيها بالهجرات ، كمـا أن كثـيرا منهـم وفـدوا عليها بعـد اسلامهم واستقروا بها ، فكان من الطبيعى أن يتفاعلوا معها ، ونما هذا التفاعل مع الاحداث ، فقد خبر الفرس حكم على أثناء خلافتـه ورأوا رفقـه بهـم وحسن سيرته بينهم ، كما رأوا فى أبنائـه الفدائية والشجاعة والتضحية ، وامتد تيار التشيع الى قـلب بلادهم خراسان مع يحيى بن زيد ، وكان دعاة التشيع يحسنون تعبئتهم وتجنيدهم واستثمار جهودهم مثل المختار ، ثم دعـاة العباسيين .

وقد التهب التشيع على أعتاب ايران عقب مصرع الحسين فى كربلاء قرب الكوفة سنة 61 هـ ، وتحول مـن شعور وجدانى الى ثورة متأججة ، تغذيها الدماء فى انتفاضة التوابين سنة 65 هـ ، وأعقبتها ثـورة المختار بن أبى عبيد الثقفى التى كانت أكثـر تخطيطا واعدادا ، وتختلف الآراء حول المختار ، ويتهمه كثـير من المؤرخين بالكذب وفساد الاعتقاد ، ولكن هذه الآراء فيها كثير من المبالغة التى أشاعها أعداؤه عنه ، والا ما رأينا رجلا عظيما كعبد الله بن عمر يصاهره ، ويشفع له عندما سجنه ابن زياد ، ويأسى لمصرعه ، وما رأينا زوجة عمرة بنـت الصحابى الجليـل النعمان بن بشير تفى له وتقبل الموت على أن تقول فيه كلمة سوء بعد موته .

وكان المختار أول من استغل الشعور الوجدانى للتشيع وحوله الى حركة منظمة مخططة ، وأمدها بـدم جديد هـو العناصر الايرانية ، وكـان العديد منهـم يعيش فى الكوفـة ويسمون

بالحمراء ، وكان عشرون ألفا منهم يحاربون تحت راية قائده ابن الاشتر كما ذكر الدينورى ، وكان الناس لا يكادون يسمعون فى هذا الجيش كلاما عربيا ، وكان المختار وقائده يفخرون بهؤلاء الموالى الايرانيين ، ووصفهم قائده ابن الاشتر بأنهم أبناء الاساورة والمرازبة وأنهم أشد الناس بصيرة فى قتال أهل الشام .

وقرب المختار هؤلاء الموالى ، وفرض لهم ولاولادهم العطاء ، وأدناهم من مجلسه ، واتخذ منهم صاحب شرطته « كيسان » ، وقد زاد المختار فى تقديمهم والاعتماد عليهم لانه رآهم أكثر طاعة له واخلاصا ، وقال فى حديثه لعرب الكوفة : « أكرمتكم فشمختم بآنافكم ، ووليتكم فكسرتم الخراج ، وهؤلاء العجم أطوع لى منكم وأوفى وأسرع الى ما أريد » .

واستاء العرب لتقديمه الموالى ، وأشاعوا عنه أنه كذاب ، وأنه طالب دنيا ، والتقوا على محاربته ، فجمع أبناء العجم وقال لهم : « ألا ترون ما يصنع هؤلاء ؟ قالوا : بلى ، قال : فانهم لم يفعلوا ذلك الا لتقديمى اياكم ، فكونوا أحرارا كراما » . وتضاعف جنده من الموالى لحسن معاملته لهم حتى صاروا أربعين ألفا ، ولا يعنى ذلك أن جيشه قد خلا من العنصر العربى ، فقد بقى معه حتى النهاية عشرون ألفا من العرب .

وكانت أهداف ثورة المختار تتلخص فى الانتقام من قتلة الحسين ، ولذلك رفع شعار « يالثارات الحسين » ، واستطاع أن يحققه بالكامل ، والدعوة الى محمد بن الحنفية ، والمساواة بين العناصر الاسلامية على اختلافها ، وقد اصطدم بثورة أخرى هى ثورة الزبيريين ، وانفض من حوله العرب الا الاقلين فلقى الهزيمة ، وأبى الا القتال حتى لقى مصرعه على يدى مصعب ابن الزبير سنة 67 هـ ، بعد أن أيقظ همم الموالى الايرانيين وأحيا

فى نفوسهم آمالا كبارا ووضعهم على طريق المساواة الكاملة مع العـرب .

وكان الموالى الايرانيون أحـد العناصر المؤثرة فى ثـورة عند الرحمن بن الاشعث التى بدأت سنة 81 هـ ، ولم يظهر دور الموالى فى المرحلة الاولى من هذه الثورة التى انطلقت من داخل العناصر العربية المحاربة فى اقليم سجستان فى أقصى شرقـى ايران بسبب قسوة الحجاج عليهم ، اذ أمر بتجميرهم ، وحرمهم فترة طويلة من رؤيـة أهلهم وذويهم ، ورغب فى قطع صلتهم بمواطنهم فى العراق وأمـر ببقائهم الى الابد فى هذه البـلاد الجديدة ، كما اتهم قائدهم ابن الاشعث بالتخاذل ومصانعة العدو ولم يدر فى خلد الحجاج أن « جيش الطواويس » الذى وضع فيه آماله وبالغ فى اعداده والانفاق عليه حتى سمى بذلك لحسنه وكماله ، وسيتحول الى سلاح ضده هو ، وكان واضحا أن ادارة الحجاج فى غفلة عن مشكلات الجند ومطالبهم فى هذا الثغر النائى

وعبر بعض القادة عن معاناة الجند حينما خطب فيهم قائلا : « انكم ان أطعتم الحجاج جعـل هذه البـلاد بلادكم مـا بقيتم ، وجمركم تجمير فرعون الجنود ، فانه بلغنى أنه أول من جمـر البعوث ، ولـن تعاينوا الاحبـة فيما أرى أو يموت أكثركم » ، وبايع الجند ابن الاشعث واعلنوا تمردهم عـلى الحجاج وخلعهم طاعة بنى أمية . وسرعان ما اتسع نطاق هـذه الثورة وانضمت اليهـا عناصر جديدة ، وأزكتها عوامل أخرى ، منهـا العصبية القبلية ، والميول العلوية ، وانطلقت جيوش ابن الاشعث كالسيل الكاسح فاستولت على خراسان والبصرة .

وفى هذه المرحلة بدأ دور الموالى فى هذه الثورة ، وانضموا اليها ، وبعض المؤرخين لم ينتبهوا الى هذا التطور الجديد وظنوها

ثورة عربية خالصة ، اذ يقول الدكتور نبيه عاقل : « اننا لا نجد في الطبرى ولا في غيره من المصادر ما يشير الى أن الموالى كانوا سببا في ثورة ابن الاشعث أو أنهم هم الذين أحدثوا الفتنة » .

ونرى أن دور الموالى كان بارزا في المرحلة التالية من هذه الثورة ، عندما امتدت الى المناطق العراقية ، ويتمثل هذا الدور في جانبين أولهما أن الموالى كانوا أحد العناصر المشاركة في الثورة، وكانوا يقاتلون مع ابن الاشعث، اذ يقول ابن عبد ربه : ان أكثر من قاتل الحجاج وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالى من أهل البصرة ، وكان الموالى هم الجمهور الاكبر والسواد الاعظم والجانب الثانى أن هؤلاء الموالى حركوا مشاعر العناصر العربية وبخاصة طائفة الفقهاء والقراء ، الذين ساءهم ما أصدره الحجاج من قرارات رأوا أنها تخالف المبادىء الاسلامية مثل الزام الموالى بالعودة الى قراهم والعمل في الارض ودفع الخراج ، وكانت صرخات الموالى المتضررين « وامحمداه » تؤثر في هؤلاء القراء أشد التأثير حتى أنهم كانوا يبكون لما يرون ، فلما قدم ابن الاشعث عقيب ذلك بايعوه على حرب الحجاج وخلع عبد الملك كما ذكر الطبرى وابن الاثير .

ولذا نرى أن حركة ابن الاشعث تمثلت فيها كل العناصر الايرانية العراقية ، عربا وعجما ، وعبرت من خلالها كثير من الاحزاب المعارضة عن شخصها ، مثل الفقهاء والقراء ، والعلويين وأصحاب العصبية اليمنية الناقمين على الحجاج والقيسية والخلافة القرشية . ولكن هذه الثورة لم تثبت أمام الوقفة الحازمة للخلافة وجندها الشامى ، ومنيت بالهزيمة في موقعة دير الجماجم سنة 83 هـ ، ولجأ ابن الاشعث الى رتبيل أحد ملوك الهند فأسلمه الى الحجاج سنة 85 هـ .

وكانت الثورات التى تحركت بدوافع شخصية ، ولم تعبر عن مظالم حقيقية للموالى أو العناصر العربية فى ايران ، أقل خطرا وأضعف تأثيرا ووجدت صدودا واعراضا من هذه العناصر ، لانهم لم يجدوا فيها تمثيلا حقيقيا لآمالهم ، ومنها ثورة قتيبة ابن مسلم ويزيد بن المهلب .

وكان الدافع وراء تمرد قتيبة خوفه من انتقام الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك لسابق موقفه منه عندما زين للوليد خلعه من ولاية العهد ، فأعلن خلعه سنة 96 هـ ودعا الجند الى مبايعته ، وأراد أن يستعيض عن افتقاره لعصبية قوية تنصره الى احياء النعرة العراقية الايرانية فى نفوس رجاله ، وتذكيرهم بعداوتهم لاهل الشام ، فقال لهم ، « يا أهل خراسان انسبونى تجدونى عراقى الام والاب ، عراقى المولد ، عراقى الهوى والرأى والدين ... حتى متى يتبطح أهل الشام بأفنيتكم وظلال دياركم » . ولكن اتباعه لم يجدوا ما يدفعهم لمناصرته ، فانفض العرب من حوله حتى أثاروا حفيظته فوصفهم بأنهم « كناسة المصرين » ، وانصرف الموالى عن الخوض فى الفتنة وقال زعيمهم حيان النبطى « هؤلاء يقاتلون على غير دين » ، ووقفوا ضده حتى لقى حتفه على أيدى معارضيه من الفريقين .

وبالمثل لم ينجح يزيد بن المهلب فى تجميع الناس من حوله ، لان خلافه مع يزيد بن عبد الملك لم يكن يخص أحدا سواه ، ولم يستطع أن يتجاوز بثورته الاسباب الشخصية الى أسباب عامة تجذب الناس اليه ، ونبذته المضرية ، وناصره فريق من قومه اليمنية ، وحلفائهم ربيعة ، لكن هذا لم يجده أمام قوة الخلافة وأنصارها فلحقت به الهزيمة سنة 102 هـ .

وظهر تلاحم العرب والموالى فى حركة أخرى تزعمها الفقهاء المجاهدون فى جيوش ما وراء النهر ، وتفرعت عنها ثورة كبيرة قادها الحارث بن سريج ، وامتدت حتى أواخر العهد الاموى .

وكانت جماعة الفقهاء فى صفوف الجند تتزعم حركة الاصلاح وتطالب بتطبيق المبادىء الاسلامية الكاملة ، وتحسين أوضاع الموالى ، وازالة العوائق التى تحول دون اقبال العناصر التركية على الاسلام ، وعندما نتلمس أخبار هذه الجماعة الاصلاحية فى ثنايا المصادر نجد من أعضائها زعماء بعض الفرق الدينية مثل الجهم بن صفوان ، زعيم الجهمية أو القدرية ، وهو مولى لقبيلة راسب ، وأبى رؤبه زعيم المرجئة ، وأبى الصيداء صالح ابن طريف مولى بنى ضبه الذى عرض مطالب الموالى على الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فأبدى اعجابه به وقال : أحرى بمثلك أن يوفد » ، وكان معه رفيق كفاحه ثابت قطنة ، ومعهم أيضا الحارث بن سريج ، وكان من أشجع المجاهدين فيما وراء النهر ، ونستنتج من المصادر أنه عربى مضرى من قبيلة تميم ، ومن هذه الجماعة الاصلاحية عدد آخر من الفقهاء الذين ينتمون الى القبائل العربية المختلفة يضيق هذا البحث عن ذكرهم . ولكننا نكتفى بالاشارة الى أنهم لا يمثلون قبيلة واحدة ، ولا يعبرون عن عصبية ، وانما تجلت فى حركتهم الروح الاسلامية ، وتلاشت الحدود القبلية والعنصرية .

وبدأت هذه الحركة بعرض هادىء لمطالب الموالى عبر عنه أبو الصيداء أمام الخليفة عمر الثانى فقال : « يا أمير المؤمنين عشرون ألفا من الموالى يغزون بلا عطاء ، ولا رزق ، ومثلهم من أهل الذمة قد أسلموا يؤخذون بالخراج ، وأميرنا عصبى جاف يقوم على منبرنا فيقول : أتيتكم حفيا ، وأنا اليوم عصبى ، والله لرجل من قومى أحب الي من مائه من غيرهم ، وهو بعد سيف من

سيوف الحجاج ، قد عمل بالظلم والجور » . وقد اثنى عليه الخليفة واستجاب لهذه المطالب .

ولكن الوضع تغير بعد وفاة عمر ، وعانى الخراسانيون من ولاية أسد بن عبد الله القسرى ، وتوقعوا خيرا من الوالى التالى أشرس بن عبد الله الذى تولاهم سنة 109 هـ ، وكانوا يسمونه الكامل لفضله ، وبخاصة أنه سعى لنشر الاسلام فى بلاد الترك بالطرق السلمية ، وأرسل وفدا لدعوة أهل سمرقند على رأسهم أبو الصيداء ، فاشترط اعفاء من يسلم من الجزية فوافقه الوالى ، فأشهد أبو الصيداء أصحابه وقال لهم : ان لم يف العمال أعنتمونى عليهم ؟ قالوا نعم .

ونجح أبو الصيداء فى مهمته واستجاب أهل سمرقند للاسلام ولكن الوالى لم يف بما وعد ، وخشى أن ينكسر الخراج ، وعندئذ ثار أهل سمرقند ، وانضم اليهم جماعة الفقهاء يتزعمهم أبو الصيداء ، وكان رد الوالى عنيفا اذ قبض على هؤلاء الزعماء ، وانتقم من عظماء العجم والدهاقين ، فأقيموا وتخرقت ثيابهم .

وحمل لواء الثورة الحارث بن سريج سنة 116 هـ وامتد بها من تركستان وما وراء النهر الى المناطق الايرانية .

ونستطيع أن نقسم حركة الحارث بن سريج الى ثلاث مراحل ، فى المرحلة الاولى كان هجومه غضبة لما حل بأصحابه وبأهل سمرقند ، وتمكن من دخول الفارياب وبلخ ، وازالة عاملها نصر بن سيار ، ووجد تأييدا كبيرا من الايرانيين ، فكان أهل مرو يكاتبونه ، ولا يقصد مدينة الا أخلاها أصحابها وتركوها له ، وانضم اليه كثير من العرب والموالى ودهاقين الجوزجان والفارياب ومرو الروذ وملك الطالقان ، ولكن تقدمه السريع تراجع أمام مقاومة الادارة الاموية فارتد الى تركستان .

وفى المرحلة الثانية قضى الحارث أكثر من اثنتى عشرة سنة فى بلاد الترك ، وعاش بينهم . وليس لدينا معلومات عن نشاطه خلال هذه الفترة الا ظهوره بين الحين والآخر مساندا لخاقان ملك الترك فى هجومه على المناطق الايرانية .

وفى المرحلة الثالثة قدم الحارث الى خراسان بعد أن أعطاه الخليفة يزيد بن الوليد الامان سنة 126 هـ ، ولكنه ما لبث أن أعلن ثورته بصورة أشد واعنف سنة 128 هـ بعد أن تولى مروان ابن محمد الخلافة ، وقال : «انما أمننى يزيد ولم يؤمنى مروان» واعتمد فى هذه المرحلة على جند من العرب واتضحت فيها مطالبه بصورة كاملة ، وفى مقدمتها الدعوة الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن يكون الامر شورى ، واستخدام عمال من أهل الصلاح والخير ، ورفض ما عرض عليه من مناصب وأموال ، وكان فى حياته زاهدا متقشفا .

وبرغم ما ذكرته المصادر من أنه لبس السواد ودعا الى الرضا فليس لدينا ما يثبت أنه كان شيعيا ، ولو صح منه ذلك لاتجه الى التعاون مع دعاة العباسيين الذين نشطوا فى هذه الاثناء وما لبثوا أن ظهروا تحت لواء أبى مسلم ، أو تعاون مع جعفر بن أبى طالب الذى دعا لنفسه بالكوفة سنة 127 هـ .

ولكن ثورة الحارث انحرفت عن مسارها من حيث لا يدرى ، اذ التف حوله العرب المضرية واعتبروا ثورتهم رمزا لعصبيتهم ، وناوأه اليمنية بقيادة الكرمانى وتحولت من ثورة اصلاحية ذات شعار اسلامى الى فتنة بين عصبيتين ، كما أنه أغفل فى المرحلة الثالثة من ثورته عنصر الموالى الذى بدأ حركته من أجلهم ، ولذا اخفقت ثورته وانتهت بانتصار الكرمانى عليه ومصرعه سنة 128 هـ .

ولكن ثورته أيضا مهدت مـن حيث لا تقصد لثـورة أخرى ، أفادت من الصراع بـين العناصر العربية ، وعلت فوقها جميعا لتبقى وحدها كـل الثمار ، وهى ثـورة أبى مسلم الخراسانى ، التى شكـل الايرانيون فيها عنصرا هاما ، وحققوا تحت رايتها كثيرا من الآمال التى تطلعوا اليها ، فاتيح لهم فى العصر العباسى أن يتربعوا عـلى مناصب الادارة والوزارة ، ويقيموا دويـلات مستقلة، بل ويعلو سلطانهم على سلطان العرب في عهد البويهيين .

*

أهـم مصـادر البحـث

1 ـ ابن الاثـير : الكامـل ·
2 ـ الاصطخرى : المسالك والممالك ·
3 ـ البلاذرى : فتـوح البلدان ·
4 ـ البلاذرى : أنساب الاشراف ·
5 ـ الجاحظ : البيان والتبيـين ·
6 ـ الجهشيارى : الوزراء والكتاب ·
7 ـ حمادة (محمد ماهر) : الوثائق السياسية والادارية العائدة للعصر الاموى
8 ـ الخطيب (عبد الله مهدى) : الحكم الاموى فى خراسان ·
9 ـ خطاب (محمود شيت) : قادة فتح بلاد فارس ·
10 ـ دكسن (عبد الامير حسين) : الخلافة الاموية من 65 هـ الى 86 هـ ·
11 ـ الدينورى : الاخبار الطوال ·
12 ـ سرور (محمد جمال الدين) : الحيـاة السياسية فى الـدولة العربية الاسلامية ·
13 ـ سالم (السيد عبد العزيز) : تاريخ الدولة العربية ·
14 ـ السيـوطى : تاريخ الخلفاء ·
15 ـ شلـبى (أحمد) : موسوعة التاريـخ الاسـلامى والحضارة الاسـلامية ـ الجزء الثانى ·
16 ـ الطبرى : تاريخ الامم والملوك ·
17 ـ عاقل (نبيه) : تاريخ خلافة بنى أمية ·
18 ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ·
19 ـ فاروق عمر : التاريخ الاسلامى وفكر القرن العشرين ·
20 ـ فلهاوزن (يوليوس) : تاريخ الدولة العربية ·
21 ـ فلوتن (فان) : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ·
22 ـ القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ·
23 ـ محمد حلمى محمد أحمد : الخلافة والدولة فى العصر الاموى ·
24 ـ المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ·
25 ـ المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ·
26 ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان ·
27 ـ اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ·